

أنفاس معدودة في أماكن محدودة!!

لذة الظالم أن يتخلى صاحب الحق عن دعوته .. تركة قديمة موروثه عن سلف خبيث: ﴿وَدُّوا لَوْ تَدَهَّنُوا فَيُدْهِنُونَ﴾. لكن رحمة الله تأبى إلا أن تنال الصالحين من عباده، فتتسرب إلى قلوبهم نسمات منعشات في الأزمات والمليّات لتعصم من الزلل، وتعتبر بهم جسر الفتن إلى الواحة الغناء والروضة الفيحاء المسماة عند أهل الإيوان: اليقين. وهو ما حدث مع الوالد الحبيب رحمه الله .. حين لطم ظالمه ودحر شيطانه وعصم نفسه وأرضى ربه، واستعان في هذا بمثل بسيط جميل، واسمعوا إخوتي القصة على لسانه:

«استدعاني الضابط يوما إلى مكتبه بمعتقل طرة، ورَحَّب بي، ودعا لي بفنجان من القهوة، ثم سألتني: هل أنت مبسوط في المعتقل؟ فكان ردي: هذا طبعاً مستحيل، وأنت خبير بالمثل القائل: يغور السجن ولو كان في جنيّة، والقرآن في وصفه للجنة يقول: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾، فعاد المفتون يضرب على الوتر: أولادك يا أخي محتاجين لك .. قلت له: هل اشتكى لك الأولاد من شيء؟ ثم أردفت: هذا أمر لا يهمني .. وتفكيري منصرف في ما هو أهم: هل أعود إلى بيتي وأولادي؟ أم أخرج من هنا إلى القبر؟ ثم أكدت ذلك بأن ضربت له مثلاً مضمونه أن لي في هذا المكان (سلة عيش وجرّة ماء وقربة نفس)، لما يخلصوا أخرج إلى حيث يشاء الله .. وبذلك وعن قصد، أو صدت الباب في وجهه تماماً، وانتهى اللقاء ولم يظفر صاحبنا مني بما كان يبغى ويتمنى.

وهذه الفكرة صحبتني منذ دلفت إلى المعتقل، فأفادتني في كل المواقف .. كان الأهل والأقارب يزوروني ويطلب أحدهم أن أسطر برقية من بضع كلمات تتقذني من ظلام السجن ، فأندرع بهذه الفكرة: سأخرج حين ينفد ما قُدّر لي من طعام وشراب ونفس، فيسوا من الاستمرار في نصائحهم.

و شاء الله عز وجل أن يكون هذا الضابط هو المشرف عن عملية الإفراج يوم 16 أكتوبر 1971 الذي تقرر فيه الإفراج عني، وبعد الفراغ من الإجراءات وصرت خارج المعتقل، قفزت إلى ذهني فكرة تذكيره بالمثل، فعدتُ إليه أرجوه أن يأذن لي بالدخول متعللاً بأن لي شنطة تركتها بالداخل، ولم أكن في الحقيقة في حاجة إليها لكونها قديمة، فاعتذر لي بشدة قائلاً: لا يا أستاذ أحمد .. هذا طبعاً ممنوع، وكان ردي على الفور: طبعاً ممنوع لأن ما قُدّر لي من طعام وشراب ونفس قد نفذ، وبعبارة أخرى ما عدش ليّ عيش عندكم!!».

ما أبرد وقع اليقين على القلب، وما أحلى سكينته على النفس، وما أقوى تثبيته لقلوب الصالحين .. وأي جرعة شجاعة بثها في نفوسهم ورباطة جأش سكبها في أرواحهم.

(سلة عيش وجرّة ماء وقربة نفس) ..

كلمات قليلة ذات معان كثيرة، زرعت في قلب قائلها وتزرع في قلب القارئ بإذن الله:

1. بذور الشجاعة واليقين الأجل:

اعتبروا يا أولي الأبصار ..

خالد بن الوليد .. رمى بنفسه في مواطن القتل كلها، فيما قتله سيف الحرب إنما قتله سيف المرض فمات على فراشه، ونفس
الدرس استفدناه من امرأة مجهولة الهوية لا نعرف لها اسماً .. قتل الحجاج ابنها ثم أراد نكأ جراحها مستهزئاً بها متشفيها بحالها فأجتمته
بقولها: مسكين أنت يا حجاج .. لو لم تقتل ابني لمات!!

لكن لماذا أسوق قصص الصالحين من سلف سابقين؟! ولا أدمع فكري بقصص غير المسلمين من خَلْفٍ معاصرين، أزيد
بهذا إيماني وإيمانك بأنه لا يغني حذر من قدر، وبأن أقدار الله غلابة، أنزع بهذا مخالب الشيطان يغرستها في قلب إيمانك، ولأن وقع
الأحداث أعلى دائماً من جرس الكلمات فقد أتيت لك بهذه الواقعة:

حدث إبان الثورة الأمريكية أن رأى الوزير المالي للمستعمرات الشرقية روبرت موريس حلماً أنه سيقتل بقذيفة مدفعية
أثناء زيارته لإحدى سفن البحرية في اليوم التالي، وقد أقلقه الحلم لدرجة أنه فكَّر في إلغاء الزيارة، إلا أنه عدل عن رأيه، وقرر اتخاذ
«الاحتياطات» اللازمة، فأصدر أوامره إلى قائد السفينة بأن لا تطلق مدافع التحية أبداً حتى يعود إلى الشاطئ، كما حذَّره من ملء
الجنود لأي أسلحة نارية أو وجود أي بارود على ظهر السفينة، وبالفعل انتهت الزيارة بسلام، واستقل موريس وأعوانه أحد
القوارب نحو الشاطئ، وفي تلك الأثناء كان قائد السفينة يراقب وصول القارب، فوقفت ذبابة على أنفه فرفع يدها ليعدها، فظن
أحد الجنود أنها إشارة البدء بإطلاق مدافع التحية، وهكذا أطلق الجندي قذيفة انحرفت باتجاه القارب الذي يستقله موريس فتسببت
في موته وهو يهيمُّ بالنزول إلى الشاطئ!!

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**إن روح القدس نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها**».

أو بتعبير الوالد الكريم: (سلة عيش وجرّة ماء وقزبة نفس).. فلن نغادر هذه الحياة حتى يكون رزقنا فيها قد نفذ، لذا لن
يقوى أحد مهما بلغ سلطانه أن ينزع روحاً بقيت لها في الدنيا لقيامات وشرّبات وأنفاس.

وإذا كان الأمر كذلك إخوتاه .. فإن الطعن في النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، والموت مقبلين أشرف لنا ألف مرة
من الموت مدبرين، ولا فارق عندها بين استقبال الموت أو استدباره ما دام في كلا الحالين نازلاً، وما دمنا ملاحقين في مطاردة محسومة
النتيجة: إن واجهنا ملك الموت أخذنا، وإن فررنا منه أدرَكنا!!

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ *** فمن العجز أن تكون جباناً

إنها الشجاعة التي صاغها عمر بن عبد العزيز دعاءً حين عرضوا عليه أن يتخذ حرساً، ويجترز في طعامه وشرابه، فرفع
الراشد الخامس يديه إلى السماء داعياً بصدق وخشوع: اللهم إن كنت تعلم أنني أخاف دون القيامة شيئاً فلا تؤمّن خوفي!!
إنها الشجاعة التي غرست الرجولة في قلوب المؤمنين .. وخلّصتهم من ولاية الشياطين!! نعم ولاية الشياطين .. ذلك أن
كل من خاف غير الله فقد والى الشيطان من حيث لا يشعر: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾.

الشجاعة التي تؤدي إلى الخطوة الثابتة في الاتجاه الصحيح، ذلك أن الجبان لا يتقدم خطوة إلا ويتراجع خطوات، واليد
المرتعشة لا تتقن صنع شيء، أما الواثق بربه .. المطمئن إلى تديره وقدره، فهذا هو من يبدع ويتألق، وصدق محمد إقبال حين قال:

إني رأيت الخوف في الدنيا عدواً للعمل

هو مطفى نور الرجاء وسالب كنز الأمل

يرمي الإرادة بالتزلزل والعزيمة بالخور

ومن احتواه الخوف لا يجني من الروض الثمر

ثم بين حلاوة عقبي الشجاعة وسوء عاقبة الجبن فقال:

المؤمن الوثاب تعصمه من الهول السكينه

والخائف الهيب يغرق وهو في ظل السفينه

تلقاه عند شبابه هرما قد انحطت قواه

وتعثرت قدماه قبل الخطو وارتعشت يداه

2. بذور التوكل واليقين الرزق:

أصبحت قضية الرزق اليوم شبها يطارد الناس ليل نهار؛ الشيب منهم قبل الشباب، حتى أصبحت عبارات العوام تمتلئ بمثل قولهم: فلان قطع عيش فلان .. وأفعالهم تنطق بأكثر من هذا، حتى هلك بهذا خلق كثير، فما سرق من سرق، ولا خان من خان، ولا نافق ولا سكت عن باطل أحد إلا من جرّاء هذا المرض، وصار للناس آهة تُعبد من دون الله، يرجون نفعها ويخشون ضرها، يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية، ويرجون منها ما لا يرجون من الله.

مع أن رسولنا الحبيب ﷺ طمأن القلوب القلقة والنفوس المضطربة فقال: «لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت». صحيح، وقد شرح الفاروق عمر بن الخطاب قول حبيبه فقال:

«ما من امرئ إلا وله أجل هو واطئه، ورزق هو آكله، وأجل هو بالغه، وحتف هو قاتله، حتى لو أن رجلاً هرب من رزقه لأتبعه حتى يدركه كما أن الموت مدرك من هرب منه».

بل إن رزق المرء أسرع إليه من ملك الموت إن حدث وتسابقا!! قال رسول الله ﷺ: «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله». صحيح

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل

لكنه خلق الإنسان من عجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

3. بذور الرضا واليقين بالخير:

ومن آثار كلمة الوالد أن من وثق بالمقادير لم يعرف الغم إليه سبيلا، ذلك أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، ورب ودود رحيم لن يقدر لعباده إلا الخير ولو كان الظاهر مؤلما.

وأخيرا .. أخي ..

لا تنس في لجة الأزمة وخضم الشدة أن الأمر لا يعدو أن يكون (سلة عيش وجرّة ماء وقربة نفس)، ثم سرعان ما ترحل إلى الدار الآخرة .. ليجزيك الله على شركك أو صبرك، ويجاسبك بما كان منك حال غناك أو فقرك، وتصبر أخي إن عيل صبرك بما تصبر به أحمد بن المعدل بالبصرة يوم مات ابنه فاسترجع ثم أنشأ يقول:

نؤمل جنة لا موت فيها ودنيا لا يكدرها البلاء

عش هادئ البال .. ولا تشغل بما خلق لك عما خلقت له ..

لا تستسلم لمن هددك في رزق أو أجل وهما مضمونان؟!

لا تتخل عن مبادئك من أجل تهديد من رعديد أو وعيد من عرييد!!

لا تلتفت لحظة عن طريق الحق إن أغروك بمغرم أو هددوك بمغرم ..

واذكر إن نسيت قصة: (سلة عيش وجرّة ماء وقربة نفس)، ولا تنس عندها الوالد الحبيب بدعوة، فهو أصل الحكاية ومصدر الرواية.

اللهم اجعل سرورنا في مواضع القدر .. واربط على قلوبنا إن أحاطت بنا الفتن وارحم عبادا حطّوا رحالهم عندك ..

واختر لهم ما يصلح دنياهم وآخرتهم .. واصرفهم عن ما يضُرُّهم دنيا وأخرى .. ولا تجعل لنا الخيرة من أمرنا .. رباه استجب.

كتبه محبا مخلصا

